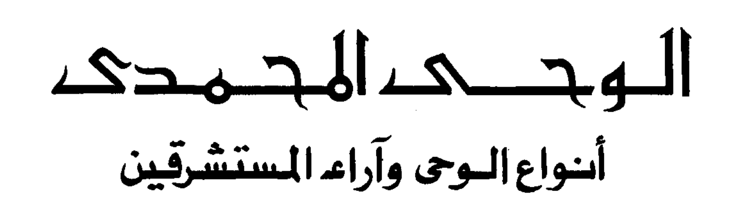


أنواع الوحى وآراء المستشرقين

الأستاذ الدكتور
عبد الجليل شلبى

الوحى فى اللغة : هو الإعلام فى خفاء ، ومنه الإشارة والإيماء والكتابة ، لأنها كلها بها شىء من الخفاء ، والإعلام بها ليس معلنا لكل الناس .

والوحى الإلهى من الله لأنبيائه .. سمى بذلك لأن الملك يسره عن الخلق ، أو هو بطبيعته خفى عنهم لأنهم لا قدرة لهم على الفهم من الملك .

وما جاء من وحى الله إلى غير الأنبياء فمعناه الإلهام أو الأمر ، من ذلك قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل » بمعنى ألهمها . ومنه : « واذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى » أما قوله تعالى : « يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها » .. فهو بمعنى الأمر ، وهو أمر تكوين كقوله سبحانه ، : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها » و : « قلنا يا نار كونى بردا وسلاما » .. ومنه : « وأوحى فى كل سماء أمرها » بمعنى بثه وكونه .

وجمعت الآية الكريمة : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء » ، أنواع خطاب الله الثلاثة وحصرته فيها ، فمعنى « إلا وحيا » إلا إلهاما ، والكلام من وراء حجاب هو سماعه ووعيه من غير رؤية ، كما كلم الله موسى عليه السلام ، وكما قال للملائكة : « إنى جاعل فى الأرض خليفة ـ » . أما إرسال الرسول فهو جبريل عليه السلام . فقد كان يرسله الله بالوحى إلى الأنبياء ، وسمى الكلام الموحى به وحيا ،

فهو مصدر بمعنى المفعول ، والقرآن وحى لذلك ، والوحى المحمدى : هو كل ما أنزل الله تعالى على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ . قرآنا أو غير قرآن .

وكان الوحى يأتى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على صور عديدة تبلغ ستة وأربعين نوعا[1] ، وقد جاءه جبريل كثيرا فى صورة رجل يحدثه ، أو يسمعه جلاَّسه وأكثر ما كان فى صورة دحية الكلبى ، أو صورة رجل بدوى من الأعراب ، وأحيانا يأتيه مثل صلصلة الجرس . وأحيانا ينفث فى روحه ما يريد الله أن يوحى به اليه ، وليس كل وحى من الله إلى نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرآنا فقد يكون حديثا قدسيا ليس له إعجاز القرآن ، وقد يكون إخبارا بحادث ، أو أمرا يصل من غير أن يذكر فى القرآن ، وإنما هو مجرد توجيه أو تعريف بشىء . وهذا كثير فى حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ويمتاز الوحى القرآنى بأنه معجز ، وأنه وقع به التحدى

وليس فى الإسلام وحى بمعنى الانكشاف (Revelation) ولا من المقبول فيه أن الله تعالى تراءى لنبى ما فى صورة ضباب أو نار أو نحو ذلك .

إمكان الوحى وصوره

هل الوحى بهذا المعنى مما يستسيغه العقل ويقبل جوازه ؟

الذين يتشبثون بالماديات لا يرون هذا الرأى ، وحتى بعض الذين يؤمنون بوجود الله ، يذهبون فى تفسير الديانات التى جاءبها كبار الأنبياء تفسيرات أخرى ، فهم يبحثون عن المصادر التى استقى منها كل نبى معلوماته ، ويتلمسون مصادرها فى تاريخ الأمم والجماعات التى اتصل بها .

فقالوا عن أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام إنه استقى معلوماته من بلاد الكلدانيين أولا ، ومن الأمم والقبائل التى لاقاها فى شمال الجزيرة العربية ومن المصريين ثانيا ،

وبعض يرى أنه هو الذى علّم المصريين حساب الفلك ورصد الكواكب ، وعلم المستقبل منها .

والكثيرون يرون أنه هو وإسماعيل وإسحق ليسوا إلا أسطورة لفقت لغرض سياسى وعلى هذا لا نبوة .. ولا وحى .. ولا وجود لهم[2] ..

---

(١) فتح البارى ١/١٨

(٢) Nieel Turner Lecture No 22. وعليه جرى صاحب « فى الشعر الجاهلى » .

أما موسى عليه السلام فقد أُنكر وجوده من كثيرين . ووصفه آخرون بأنه أمكر وأدهى قادة بنى إسرائيل ، وأنه تغيب عن أصحابه فى سيناء أياما ثم عاد ومعه ألواح مكتوبة زعم أنها وحى . وكان غرضه أن يجمع الفروع الشتيتة من بنى إسرائيل إلى أصل يربط فروعهم ويجمع شتاتهم ليشعروا بأنهم أمة واحدة ، وقد نجح فيما كان يرمى إليه . وهذا الرأى يقبل وجود موسى وينكر الوحى .

ويأتى الوحى عند الإسرائيليين من بعد موسى بمعنى الإلهام أو انبثاق الفكرة فى ذهن النبى . فقد كان أنبياؤهم يدربون وينقطعون فوق المرتفعات حتى يصلحوا للنبوة وقد قابل شاءول زمرة الأنبياء نازلين من المرتفعة أمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون بما سيكون[١] .. فالنبوة لديهم شىء مكتسب . ولكنهم كانوا يختارون من يصلح لهذا التدريب ، ومن يكون من الأنبياء .. وكان الاختيار يرجع إلى المال والجاه ولذا استكثروا أن يكون شاءول (طالوت) من الأنبياء ، لأنه كان ابن رجل من بنيامين اسمه قيس فلما تنبأ مع الأنبياء قال الشعب الواحد لصاحبه ، ماذا صار لابن قيس ؟ أشاءول أيضا بين الأنبياء ؟ وكانت هذه الجملة مثلا لديهم ، لأن بنيامين أصغر العشائر .

وأنبياء بنى اسرائيل بعد موسى كانوا يعلمون التوراة ، ويشرحون نصوصها ، وليس لهم زيادات إلا ما ينقدح فى أذهانهم من معان فرعية ، وما يتنبأون به من أحداث نتيجة لمخالفة قومهم شريعة التوراة أو استقامتهم عليها . وكان انقطاعهم فى الفلوات للرياضة الروحية ، ويبدو أنهم كانوا يدرسون الفلك والرياضات ، وأنهم كانوا يستعينون بهذه الدراسة على التنبؤ بأحداث المستقبل . والنصوص الأثرية التى كتبت بها نبؤاتهم تدل على ذلك[٢] حتى كبار الأنبياء منذ إبراهيم ويعقوب كانوا يعنون بهذه الدراسة[٣] . وكان لقب النبى من هذا التنبؤ ، أى الإخبار بالغيبيات وشئون المستقبل ، وكان النبى يسمى أيضا الرائى لذلك .

ومن هذا نجد أن النبوة بعد موسى ـ عليه السلام ـ لم تكن وحيا من الله ، ولم يكن ثم ملاك يهبط على الأنبياء وهم أشبه لعلماء المسلمين المجتهدين كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل ..

وفى المسيحية يبرز الوحى بمعنى الانكشاف والرؤية أو التجلى Revelation ومع ما جاء فى الأناجيل من أن المسيح كان له إنجيله الذى أمر التلاميذ أن يبشروا به[٤] .. لا يقول

---

(١) صموئيل الأول ص ١٠
(٢) أبو الأنبياء ١٥٣
(٣) نفسه
(٤) مرقس ص ١٦/١٥

أتباعه إنه تلق وحيا لأنه إله . ولكن الانكشاف لديهم هو ظهور المسيح لبعض أتباعه وإلقاؤه تعاليمه لهم . وقد بدأ هذا بظهور المسيح بعد صلبه وقيامه من قبره إذ تراءى أولا لمريم المجدلية ومريم الأخرى ، ثم ظهر لتلاميذه فى صور مختلفة فى الأناجيل فأوصاهم ثم ودعهم وارتفع الى السماء[1] وبعد ذلك ظل يظهر ويوصى ، فقد ظهر لبولس وهو فى طريقه إلى دمشق ليستاق بعضا من أتباع المسيح الى دمشق ، وبغتة أبرق حوله نور من السماء وسمع المسيح يناديه : لماذا تضطهدنى ، وكان هذا الصوت مسموعا أيضا للذين كانوا معه . وقد ظل ثلاثة أيام لا يبصر . وقصته هذه مشهورة معروفة ، ولم يقف ظهور المسيح عند حوارييه وبولس شاول بل ظل يتراءى للكثيرين ، منهم المسيحيون ومنهم الذين اهتدوا به إلى المسيحية . ولعل آخر ما حدث من ذلك ظهوره للقديس يوسف سمث مؤسس جماعة المورمون[2] بأمريكا .

وهناك نوع من الوحى شائع فى الكتاب المقدس بقسميه ، وهو الرؤيا المنامية ، وقد حدثت لإبراهيم عليه السلام غير مرة ، وهى أيضا شائعة فى العهد الجديد . كالتى رآها يوسف النجار خطيب مريم العذراء . وبها ثبتت لديه براءتها[3] وكالتى حدثت لحنانيا ، إذ أمره المسيح فى نومه أن يذهب إلى شاؤل (بولس) ويشفيه من عماه بعد أن أعشاه النور حين ظهر له المسيح[4] .

وأعجب أنواع الوحى رؤيا يوحنا اللاهوتى ، فقد سمع صوت المسيح وهو فى يقظته ورأى ملاءة مدلاة فيها حيوانات الأرض ، ونظر إلى السماء فرأى الله جالسا ومن حوله أربعون ملاكا . والمسيح فى صورة كبش مذبوح[5] وسمع محاورة الله والأربعين من حوله وثناءه على الكبش المذبوح وتقريره أنه هو المستحق وحده لأخذ المفتاح وفتح الصندوق المغلق ، وهذا انكشاف أو رؤيا .

هذه صور من أنواع الوحى فى الديانات الثلاث السماوية . فما رأى العلماء فيها ؟

تفسيرات للوحى :

يبدو أن الوحى من الله بواسطة الملك أقرب هذه الصور إلى العقل وأيسرها قبولا وقد أفاض المرحوم الشيخ محمد عبده فى شرح إمكانه من عدة أوجه ، ففرق أولا بينه وبين الإلهام الذى ينبثق فى النفس فتستيقنه على غير شعور منها بمصادره ولا بحث فى أدلته ، وهو أشبه بأنواع

---

(١) أنظر أعمال الرسل ص ٩/٤ ـ ٩
(٢) See Book of the White Prophet
(٣) متى ٢٠/١
(٤) أعمال الرسل ٩/١٠ ـ ١٨
(٥) انظر هذا السفر العجيب فى آخر العهد الجديد .

الوجدانات من الجوع والعطش والفرح والاكتئاب . وهذه الوجدانات التى أشار إليها يجد لها العلم الحديث الآن أسبابا باطنية ، وقد تكون انعكاسا لمشاعر وأحداث مرت بالشخص من زمن بعيد ، واستقرت فى عقله الباطن . ثم انبعثت لأسباب دعت إليها وأثارتها من غير أن يطفو الحادث ذاته فى العقل الظاهر الشعورى . فهذه ليست من الوحى فى شىء ويمكن أن تدخل فى الإيحاء Inspiration .

وساق الإمام من باب التمثيل والتقريب اختلاف الناس فى الذكاء والفطنة فيدرك الواحد منهم فى لمحة ما لا يدركه الآخر إلا بعد كد الذهن وطول التفكير ، وربما لا يدرك . ومرد ذلك إلى الفطرة التى فطره الله عليها ، وهو لا كسب له فيها وليس فى طاقته أو طاقة من يعنون به أن يزيدوا ذكاءه شيئا ، وكبار الهمم وذوو النفوس العالية يدركون الأشياء البعيدة المنال فيسعون إليها وهى خفية على من دونهم ، فينكرون بداية أعمالهم أو يسخرون منها ثم تفجؤهم خاتمتها فيضطرون إلى الإذعان لهم ، ثم لا ينكرون عليهم ما يكون من محاولات أخرى إلى شىء بعيد عنهم .

وإذا سلم هذا فى الحسيات فإن مما ينبغى أن يسلم به أن من الفطر البشرية ما يكون له من النقاء والصفاء ما يجعلها مستعدة للفيض الإلهى وأن تشهد من عالم الأرواح وتتلقى عن العليم الحكيم ما لا تطيقه الفطر الأخرى .

وهذا بطبيعة الحال يقتضى الإيمان بالملائكة ، وقد ذهب الشيخ يستدل على وجودهم بما أرشد إليه العلم من اشتمال الوجود على مواد لطيفة لا تدركها حواسنا وليس ثمت ما يمنع أن تكون هذه الكائنات الروحانية اللطيفة ناقلة لشىء من العلم الإلهى إلى من أعده الله تعالى وأمده بصفاء الفطرة لتلقى هذه المعلومات[1] ..

والواقع أن الأمر أيسر من ذلك . لولا أن الشيخ افترض نفسه يتحدث إلى من لا يؤمنون بالغيب . وقد أصبح من المسلم به الآن أن هناك عوالم فوق هذه الكائنات المادية ويوجد الآن علم اشتهر هو علم الأرواح ، وتوجد بحوث كثيرة حول العالم الأثيرى ، وأصبح الإيمان بهذه الكائنات الخفية وآثارها فى الكون المحسوس أمرا مسلما به إلا عند القلة التى رانت المادةعلى مشاعرها وقلوبها . والإيمان بهذه العوالم يجعل الإيمان بالملائكة أمرا مقبولا ، بل إن الايمان بالملائكة أقرب ، ونحن آمنا بالله الخالق الواحد الأحد ، وهو لا تدركه الأبصار ، ولكن مخلوقاته تفصح عن وجوده .

---

(١) رسالة التوحيد ص ١١١ - ١٣ - طبع دار المعارف .

والإيمان بالله يقتضى الإيمان بكتابه وبكل ما جاء فيه . ويعود الأمر أخيرًا إلى ما اختص الله به هذا الكتاب الخالد من إعجاز ، وما تحدى به الناس ولا يزال يتحداهم فهو كتاب حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وما جاء من أدلة العلم الحديث بعد ذلك فهو أدلة زائدة ومؤيدة .

ونعود الى الرؤى التى تمثلت لبولس وأمثاله ومشاهدة المسيح عيانا ، وقد بنيت المسيحية على رؤيا بولس . وبينما كان بعض الأحبار يمشى فى أحد أحياء لندن - (فى اولد جيت Old Gate) حى اليهود - ظهر له المسيح نهارا وخاطبه ، وعلى هذا الخطاب أنشأ فرقة مسيحية معروفة . وعندما كان قسطنطين يزحف على روما لمحاربة خصومه - رأى بعد غروب الشمس هالة من النور على شكل صليب ، ومكتوب عليها أو تحتها جملة (بهذا سننتصر) ثم رأى فى نومه المسيح ومعه الصليب نفسه ، وأمره باتخاذ الصليب شعارا وأن يزحف على عدوه به وقد انتصر فعلا واعترف بالمسيحية وأباحها فى دولته وأصدر بها مرسوم ميلان سنة ٣١٣ م[١] .

وهذا الحادث لم يأت من قسطنطين وإنما جاء من أسقف قيصرية يوسيبوس Eusibus وكان معاصرا لقسطنطين . ومع أن قسطنطين أقر المسيحية وجعلها دين دولة لا يرى أكثر المؤرخين أنه دان بها ، بل يؤكد الكثيرون أنه مات على وثنيته ، وأنه أقرها لأسباب سياسية ، وإذن فرؤية هذا الصليب النورانى ورؤية المسيح لا هى موضع ثقة ولا هى مما يعد من الوحى .

وعن رؤيا بولس فسرها مؤرخو المسيحية بأنها من الخيالات والأوهام التى تتراءى لبعض الناس ، وهى انعكاس لخواطر وأوهام فى نفسه . وهى تتمثل بكثرة لسكان الصحارى والجائلين فيها . وقد تمثلت لماركو بولو فى رحلته ، وكان ذلك شائعا ومألوفا فى صحراء جوبى Gogi - التى جابها ماركوبولو[٢] . ومن الذين دونوا هذا الرأى وتمسكوا به دكتوانج Ing من ذوى المناصب المسيحية الكبيرة . وهو يعزو ذلك إلى حالة نفسية طرأت عليه بعد أن شاهد مصرع الشهيد ستيفن رميا بالحجارة[٣] والواقع أن هذه الظاهرة من السماع والرؤيا كانت معروفة بين أنبياء بنى إسرائيل . وكانوا يتوسلون إليها بوسائل مختلفة ، أحيانا بآلات الطرب كما رأينا مع الزمرة التى قابلها شاول ، وأحيانا يطلبونها بطول النسك والعبادة . وجاء فى كلام دانيال : (لم آكل طعاما شهيا ولم يدخل فى فمى لحم ولا خمر ، ولم أدهن حتى تمت ثلاثة أسابيع ، وفى اليوم الرابع

---

(١) انظر أوربا العصر الوسيط ١/٤٠ للدكتور سعيد عاشور ط . م الانجلو

(٢) See "Outline of Modern Belief" p. 320

(٣) IBID

والعشرين من الشهر الأول ... رفعت عينى ونظرت فإذا برجل لابس كتانا وحقواه منتطقان بذهب أو فاز. وجسمه كا لزبرجد ووجهه كمنظر البرق ، وعيناه كمصباحى نار ، وذراعاه ورجلاه كعين النحاس المصقول وصوت كلامه كصوت جمهور ، فرأيت ـ أنا دانيال ـ الرؤيا وحدى والرجال الذين كانوا معى لم يروا الرؤيا لكن وقع عليهم ارتعاد عظيم فهربوا) .[1] وفى هذه الرؤيا وصف للملاك ، وقد صور فى صورة إنسان وإن كانت أعضاءوة تختلف فى مظهرها ولا تصعب تفسير هذه الرؤيا على نحو ما فسرت به الرؤى السابقة . ولا تزال أمثال هذه التهاويل تتراءى للرهبان والعباد الذين ينقطعون فى الفلوات أو يتعبدون منفردين فى الظلمات . وكثيرا ما تكون نتيجة إجهاد عصبى أو اضطراب نفسى[2] .

لا رؤيا ولا تجسيم :

حصر القرآن صور الوحى فى أنواع ثلاثة جاءت فى قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء) . والمراد بالوحى ما يلقى فى القلب من الأفكار يقظة أو مناما ، وهو أعلى من الإلهام وأعم ، فان إيحاء الله إلى أم موسى كان إلهاما ، وهو لا يستدعى صورة كلام لفظى ، ووحى الله لإبراهيم أن يذبح ابنه كان فى المنام ولكنه كان أقوى إذ كان أمرا إلهيًا ولم يكن مجرد فكرة ، وهذا معروف فى اللغة العربية ومنه قول عبيد بن الأبرص :

وأوحى إلىَّ الله أن قد تآمروا بإبْلِ أبى أوفى فقمت على رجلى[3]

فهذا النوع إذن يشمل عديدًا من الصور .

والنوع الثانى هو الكلام من وراء حجاب ، كما كلم الله موسى عليه السلام ولم يره . فلما طلب رؤيته قال : (لن ترانى) وكذلك قال سبحانه للملائكة : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) . وكلم رسوله محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى معراجه [4] ـ واختلف المتكلمون فى رؤيته .

ونحن أميل إلى رأى السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ إذ أنكرت حدوث الرؤية وحين قيل لها

---

(١) دانيال ص ١٠/ ٢ ـ ١٤

(٢) فى سنة ١٩٧١ . أمسك رجال البوليس البريطانى برجل من نيجيريا يمشى فى الشارع عاريا . وقال إنه أثناء عبادته وسهره ليلا سمع صوتا يأمره بالتجرد من ثيابه أثناء عبادته . ثم تراءى له طيفه الجميل وأمره أن يمشى فى الشارع عاريا . وهو لا يريد مخالفته .

(٣) يقول : ألقى فى روعى أنهم تآمروا على هذه الإبل .

(٤) غنى عن الشرح انه كان كلاما بلا صوت . والله أعلم كيف كان .

إنه رآه .. قالت : لقد قَفَّ شعرى مما ذكرت ، من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .

والنوع الثالث : ماكان بإرسال الملاك جبريل عليه السلام إلى أنبياء الله ، وله صور عديدة أيسرها أنه كان يأتى فى صورة بشرية فيسمعه رسول الله ويسمعه ويراه من معه أما السماع منه فى صورته الملكية فكان شاقا جدا ، لما فيه من فهم بشر عن ملك روحانى وقد كان يأتيه فى الليلة الباردة فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا .

وفى النوعين الثانى والثالث يختلف الوحى المحمدى عن الوحى فى العهدين القديم والجديد ، وقد ذكرنا صورا منه . ومن الصور الشائعة هناك تكليم الله الأنبياء ولم تذكر الكيفية التى كلمهم بها ، كما كان يظهر لهم أيضا ، ففى سفر التكوين : وقال الرب لإبرام : اذهب من أرضك الى الأرض التى أريك [١] ، وظهر الرب لإ برام وقال : لنسلك أعطى هذه الأرض [٢] وقال الرب لإ برام ـ بعد اعتزال لوط عنه : ارفع عينيك وانظر من الموضع التى أنت فيه .. [٣] ، وحدث هذا لموسى أيضا كثيرا ، فقد ناداه الله من وسط العليقة ، وقال : موسى . موسى . فقال هأنذا ، فقال : لا تقترب ... اخلع حذاءك [٤] .

وهو حوار طويل ، ومتكرر [٥] ..

ومن الصور المألوفة هناك أيضا أن يتراءى الله فى صورة ظلة من الغمام تغشى المكان ، وهى بقية من الوثنية التى تجنح الى تجسيم الإله ، ففى سفر التكوين إن الله وعد إبراهيم أن يعطيه النسل والأرض ، وطلب إبراهيم علامة ذلك من الله ، فقال : خذ لى عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية ، وكبشا ثلاثيا ، ويمامة وحمامة ، فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه ، وأما الطير فلم يشقه ، .. ولما صارت الشمس إلى المغيب وقع على إبرام سبات وإذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه .. ثم غابت الشمس فصارت العتمة ، وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع ، فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا .. [٦] الخ .

وتفسير ذلك أن العادة الجارية فى ذلك الوقت أن الشخصين كانا إذا أبرما عهدا وأرادا توثيقه ، أتيا بذبيحة فشقت نصفين وجعل كل نصف فى جانب ، ثم يمر المتعاهدان أو الذى يريد

---

(١) تكوين ص ١٢/ ١

(٢) نفسه ٧

(٣) نفسه ص ١٣/ ١٤

(٤) خروج ٣/ ٥

(٥) انظر : ص ٤ خروج كله وما بعده

(٦) تكوين ١٥/٨ـ ١٨

توثيق العهد على نفسه بين شق الذبيحة . وقد جيء هنا بثلاث ذبائح شقت كل واحدة نصفين . أما الحمام واليمام فليس قابلا للشق لصغره فجعلت كل واحدة فى جانب . وقد تراءى الله فى صورة تنور دخان ومصباح نار وجاز بين قطع الذبائح وبذا تم قطع الميثاق مع إبراهيم .

وحدث مثل هذا مع موسى أو ما هو أكثر منه فى الرؤية والعهد . فى سيناء صعد موسى إلى الجبل . وكلمه الله ووعده ، وقال الله له : اصعد إلى الرب أنت وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل واسجدوا من بعيد ، ويقترب موسى وحده إلى الرب وهم لا يقتربون [١] ..

وإذ قبل الشعب وصايا الرب وآمن بوعده ذبح موسى ذبائح من الثيران . ورش من الدم على المذبح . ورش على الشعب توثيقا للعهد . ثم صعد هذا الجمع ، ورأوا إله إسرائيل . وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف .. ولكنه لم يمد يده الى أشراف بنى إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا .. [٢] .

صعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل . وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام . وفى اليوم السابع دُعى موسى من وسط السحاب . وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل [٣] .

وإذن فقد رؤى الله سبحانه وتعالى ـ جهرة وله رجلان كبنى آدم وكل ما تميز به أن تحت قدميه صنعة ثمينة لا يوجد مثلها عند البشر . وهذا يقتضى أن ميزته فقط فى الثراء وغلاء الأدوات التى يستغلها . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وحديث موسى مذكور فى القرآن الكريم بصورة تناسب جلال الله تعالى وألوهيته وتنزهه عن صفات البشر . ولم يره موسى وإن كان قد طلب ذلك . ولكن جاء أن الله كلمه تكليما .

وتراءى الله تعالى لموسى ولبنى إسرائيل جميعا فى صورة عمود من السحاب أو النار فجاء فى سفر الخروج عن خروج موسى بقومه من مصر هاربين من فرعون . وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود سحاب ليهديهم فى الطريق . وليلا فى عمود نار يضيء لهم . لم يبرح عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا [٤] ..

---

(١) خروج ٣٤/ ١ . ٢

(٢) نفسه ١١

(٣) نفسه ١٥ ـ ١٨

(٤) ص ٢١/١٣

وعندما اتجه الإسرائيليون إلى البحر وفرعون وجنوده يقتفونهم انتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم[١] ..

وهكذا نجد صور التجسيد رمزية وغير رمزية تشيع فى الديانتين ..

والقصة التى جاءت عن إبراهيم جاءت بصورة أخرى فى القرآن قوامها أنه عليه السلام طلب أن يريه الله كيف يحى الموتى . فأمر الله أن يذبح أربعة من الطير يوزعهن على الجبال ثم يدعوهن فيأتين أحياء : (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى ، قال أولم تؤمن قال : بلى ولكن ليطمئنّ قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ[٢] إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا . ثم ادعهن يأتينك سعيًا ، واعلم أن الله عزيز حكيم »[٣] .

وبهذا يتضح أن الوحى المحمدى بكل صوره بعيد كل البعد عن صور التجسيم وهو شاهد على ما هناك من تحريف . وجنوح إلى الوثنية . وذلك مصداق قول الله تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه) . ومن هيمنته أنه يبين ما فى هذه الكتب من انحراف ، وما دس فيها من خيال الرواة .

الوحى المحمدى فى نظر المستشرقين :

لا ستطلاع رأى المستشرقين فى الوحى المحمدى يجب أن نرجع إلى بداية الصلة الثقافية بين الشرق والغرب ، أو ما يمكن أن نسميه بداية الاستشراق ، وهى بداية دراسة الغربيين لغات الشرقيين وظروفهم العامة ، وهذه الدراسة بدأت فى أسبانيا العربية لغرض التبشير وغزو الإسلام ، ولكنها لم تستمر بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين سنة ١٤٩٢ م ولكن فى القرن السادس عشر جاءت حركة توحيد الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية ، واهتمت روما بالدراسات السامية عامة لهذا الغرض ، وكانت الحركة الإنسانية معاصرة لهذا النشاط وهى معنية بالثقافة العامة لبنى الإنسان فكانت الدراسات الإسلامية أهم هذه الدراسات ، وبرز رجال ذوو تأثير فى إثراء الفكر الأوربى بثقافة شرقية ، وهم رواد الاستشراق نضع على رأسهم العالم الفرنسى وليام بوستيل وتلميذه جوزيف إسكاليجر وهو عالم مبشر أغراه درس الثقافة الشرقية بالتحول إلى الاستشراق ثم تبعها آخرون .

هذه الدراسات بوجه عام كانت مشبعة بخلفية ليس من السهل أن نغضى عنها فخلال

---

(١) ١٤/١٩

(٢) ضمهن إليك وتأملهن

(٣) سورة البقرة ٢٦٠

الحروب الصليبية كان طعن الإسلام واختلاق العيوب لنبيه أحد الأسلحة التى يحارب بها المسلمين ، وكان يرضى عامة الشعوب الأوربية أن تسمع شتائم النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن يروا صورا مزرية للإسلام والشعوب الإسلامية ، واهتم الكتاب بإرضاء هذه الرغبة فوصموا نبى الإسلام بأنه ساحر وخداع وأنه شهوانى وأنه عدو المسيحية ـ هدم كنائسها فى الشرق . ومن العجيب أنهم انقادوا لهذا الخيال دون اطلاع أو دراسة حتى أقر الكاتب الفرنسى جيلبرت دى نوجننت Guilbert de Nogent أنه يكتب عن الإسلام ونبيه دون الرجوع إلى مصادر مكتوبة ، وأنه يكتفى بما يشيع بين العوام من غير اتخاذ ميزان نقدى يميز الصحيح من الباطل ، ولكن يسوغ ذلك لديه أنه لا بأس على الكاتب ، أن يصف بالسوء من يفوق خبثه كل سوء [1] .. وأُخرجت على هذا الأساس ملاحم وروايات تصف المسلمين أنهم عباد أوثان وأن محمدًا هو الوثن الأكبر لديهم ، وحتى اسم محمد ـ لم يكن معروفا لديهم بدقة فكتبوه بعدة رسوم [2] .. وتخيلوه فى صور غريبة لا أصل لها .

وبعد الحروب الصليبية جاءت حروب الأتراك العثمانيين التى أزعجت أوربا كلها وقد قضت على الكنيسة الشرقية ـ فى القسطنطينية نهائيا ولم تنج الكنيسة الغربية إلا بمعونة القدر ، وكان الخليفة العثمانى قد أقسم ليطعمن جواده علفه على مذبحها وكان قادرا على البر بقسمه ولكن منيته عاجلته .

هذه بوجه عام عوامل بثت فى روع الأوربيين كراهة وحقدًا ورسمت فى أذهانهم عن الإسلام صورة كريهة مشوهة .

وبدأت صورة الإسلام والمسلمين تتضح قليلا قليلا منذ القرن السابع عشر وعند ظهور النزعة العقلية بدأ كتاب الغرب فى موقف الحائر بين عقله ودينه . فقد كان الاتجاه العقلى يكشف لهم الكثير من مزايا الإسلام ، ويظهر أخطاءهم السابقة . لكنهم ألفوا أن يخضعوا لنصوص الكتاب المقدس وأن يجعلوه حكما فى دراستهم ، وقد كان ريتشارد سيموند .. المستشرق الفرنسى من السابقين إلى الدفاع عن الإسلام وإنصافه من تحامل كتاب العصور الوسطى فأخرج سنة ١٦٨٤ م كتاب التاريخ النقدى لعقائد وعادات الشرقيين فتحدث أولا عن المسيحيين ، ثم عرض عادات

(١) انظر تراث الإسلام ١/ ٣٤ عالم المعرفة .

(٢) انظر تاريخ الحضارة الإسلامية لخودا بخش ص ٢٥ وما بعدها .

وطقوس المسلمين ، فأبدى تقديرا وإعجابا لبعض ما عرض ، لكنه تعرض للوم من بعض أقرانه على هذه الموضوعية [1] .

وفى القرن الثامن عشر بدأت دراسة أصرح ، وموازنات بين أعمال المسلمين وأعمال المسيحيين خصوصا فى أسبانيا ، فبدت نصاعة الإسلام وسمو تعاليمه . ثم تتابعت دراسة الإسلام ومحاولات فهم القرآن الكريم بطريقة أدنى إلى الموضوعية وأقرب إلى الدقة ولكن لم يستطع الكتاب إلا قليلا جدًا أن يتخلصوا من رواسب الماضى .

وكان المحامى الإنجليزى ـ جورج سيل George Sale من السابقين إلى ترجمة القرآن الى لغته ونشر ترجمته سنة ١٧٣٤ مع مقدمة ضافية لم يفته فيها أن يذكر أن النبى محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان تلميذًا للكتاب المقدس استقى منه ما جاء فى القرآن من قصص وتدل كتابته على سعة اطلاع دينى واستشراق ، وقد اتخذت ترجمته وتعليقاته نبراسًا للذين جاءوا بعده ، والترجمات القرآنية تشغل بحثا خاصا .

وبمراجعة حركة الاستشراق والحديث عن فكرة المستشرقين عن الإسلام ، نجد أن الفكرة التى رسختها الدراسات السابقة عن الشرقيين تمثل صخرة عاتية ليس من السهل أن تكسر ، وأن الذين أبرزوا محاسن الإسلام كانوا يبرزونها على حذر ، وبدأ الجرآء منهم مترددين إزاء اعتبارات غير فكرية ، فالفيلسوف الفرنسى فولتير ـ الذى لم يكن يدين بأى دين ـ أبدى إعجابه بالحضارة الإسلامية وبسياسة النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى تتسم بالإنسانية والحكمة ، وبجانب ذلك رأى أن الكنيسة والأديرة لم تمد الفكر الإنسانى بشىء ، وظل يسخر من رجال الدين المسيحى حتى من القسيس الذى حضر موته . ولكنه كان يرى من الحتم استغلال العاطفة الدينية التى يدين بها الشعب الفرنسى لصالح وطنه وكان التيار الفكرى عن محمد أنه من المدعين السحرة الذين اتخذوا من الأساطير الدينية وسيلة ناجحة لخديعة الشعوب ، وكان من المنتظر من هذا الفيلسوف الذى لم يعبأ بطقوس المسيحية أن ينصف محمدًا فى كونه ذا عقل وحكمة وإن لم يؤمن به نبيًا ، ولكنه كشف عن شىء من عظمته .

ومما يوضح هذه النزعة المترددة الحائرة أنه ظهر فى هذا الوقت ـ ١٧٢٠ م ـ كتيب لم يجرؤ مؤلفه أن يذكر اسمه وجعل عنوانه « محمد ليس محتالا »(Mohamed is no Imposter) [2] ولا ريب أن ما جعله يخفى اسمه هو خوفه من معارضى رأيه .

---

(١) تراث الإسلام ١/ ٦٤ وما بعدها

(٢) نفسه : ٦٦

وقد تعرض المستشرق الألمانى رايسكه J.J. Reiske لهذه المعارضة ، فقد كشفت له دراسته الاستشراقية العميقة عن جوانب من عظمة النبى محمد وبهاء الإسلام ، وأنه يحوى جوانب إلهية . فلما أعلن آراءه ثار عليه بعض معاصريه وجاهروه بالعداء والنقد مستغلين عواطف الجماهير التى تكره كل شىء شرقى .

وكان إدورد جيبون (١٧٩٤) من أكثر الكتاب تأثيرا فى تكوين صورة صحيحة للشرق حين أخرج كتابه اضمحلال وسقوط روما « "The Decline and Fall of Rome" » وفيه قرر أن الحضارة تأخرت ثمانية قرون بخروج العرب من إسبانيا وجيبون كان مدرس التاريخ الوسيط فى جامعة أوكسفورد ، وأراد أن يرى رومة فى عصر النهضة وأن يوازن بينها وبين روما الأباطرة ، وفى معبد قديم لجيوبتر تحول إلى كنيسة أصغى إلى تراتيل الرهبان ورأى منظرهم فى رثاثة الملابس ، وعرى الأقدام ، فرأى أن المسيحية لم تقدم شيئا للحضارة ، وتمنى لو ظلت أوربا وثنية ولم تدخل المسيحية ، إذن لكان من السهل أن تدين بالإسلام وأن تبقى على حضارته . ولو أنها كانت كذلك لتقدم وجود الجامعات فى انجلترا وفرنسا مائتى عام ولم يكن جيبون مسلما ولا اعترف بمحمد نبيا ولكنه جرؤ على إنصاف المسلمين ، وحضارة المسلمين منبعها القرآن . ويعتبر جيبون بكتابه هذا نقطة تحول فى تطور الفكر الأوربى إزاء الإسلام .

وتوالت الكتب بعد ذلك بعنوان « حياة محمد » ثم كتب أخرى عن تاريخ الإسلام وحضارته . ومراجعة هذه الكتب تبدى تطورًا واسعًا فى آراء الغربيين وحكمهم على نبى الإسلام . ففى عام ١٧٣٠ أخرج المستشرق الفرنسى هنرى دى بولينيفيه أول كتاب بعنوان حياة محمد « "Vie de Mohamed" » وفيه نفى عنه فرية السحر والدجل ووصفه بالعقلانية ومهما يكن من شأن هذا الدفاع أو قلته فإنه يعتبر خطوة واسعة بجانب ماكان يشاع عن نبى الإسلام من خرافات ، فقد جاء عنه أنه كان سكيرا ، وأنه وعد قومه أنه يرجع إليهم بعد ثلاثة أيام من وفاته . ولذا تركوه بدون دفن حتى تعفن جسمه وأكلته الخنازير ، وهذا سبب تحريم المسلمين لحوم الخنازير[1] .

وأخرج المستشرق الألمانى وليم موير حياة محمد ومع تحامله الكثير على الإسلام ونبيه ـ نفى عنه فرية الصرع ، فقد كان الذين قبله يقولون إن محمدًا ينتابه الصرع عندما يأتيه الوحى . وهو لذلك ليس وحيًا ، وإنما هو أوهام ، وقد كان دحض هذه الفرية هينًا جدًا وواضحًا ، لأن المصروع

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ـ خودا بخش

عندما يفيق من صرعه لا يذكر شيئًا أصلا مما حدث له ، وقد جاء بعد موير مستشرقون آخرون منهم مونتوجومرى وات ـ زادوا هذه المسألة وضوحًا بأن المصروع لا يأتى بمثل هذا التشريع الدقيق ، والأحكام والحكم التى جاءت فى القرآن الكريم ، وقد كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين يفصم عنه الوحى يتلو على أصحابه آى القرآن فى ثبات واطمئنان وفيها تفصيل لأحكام الميراث والزواج والديون واللفت الى بديع ما أنشأ الله فى السموات والأرض .. كل ذلك فى أسلوبه الرائع البليغ ، ومثل هذا لا يصدر عن مصروع .

وراجت مرة عن المستشرقين فكرة مؤداها أن الإسلام دين صحراوى يتسم بعادات البدو وتقاليدهم من الحفاظ البالغ على المرأة والحرص على الأخذ بالثأر ، وجعلوا تشريع القصاص من هذه العادات ، وهم فى هذا مغالطون ، والقصاص والحدود مذكورة فى التوراة ويعارض الآن مونتوجومرى وات ـ المستشرق الاسكتلاندى ـ هذه الفكرة فيذكر أن مكة كانت بلدًا حضاريا وأنها لم تكن تخضع لعادات الصحراء .

مصادر القرآن فى رأيهم :

قلما أغفل مستشرق ذكر الديانتين ـ اليهودية والنصرانية ـ وأنهما الينبوع الذى استقى منه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصول الديانة الإسلامية وفروعها . وقد جرى على هذا الدكتور ـ جب ـ المستشرق الإنجليزى فى كتابه « المحمدية [1] » « Muhamadism » .

الذى اعتبر فى نظر الكثيرين من المستشرقين تمجيدا للإسلام . وهو لم ينصف الوحى الإسلامى أى إنصاف . وقد أكد هذه الفكرة المستشرق الكبير الفريد جيوم بلند فى غير موضع من كتاباته ، وكنا نسمع من عارفيه « فى المدرسة الشرقية » بلندن أنه أخرج كتابه « الإسلام » معارضة وردًا لكتاب جب . وفى هذا الكتاب يفترض مبدئيا أن محمدًا كان على صلة بهم ثم ينتهى إلى تأكيد هذا الافتراض . يقول إنه من الطبيعى أن نفترض ذلك لأنه أثناء حيرته فى بحثه عن الله . وعدم وجود معين من الوثنيين فى مكة كان لابد أن يتجه إلى اليهود والنصارى . ولما أعلن نبوته اتجه إليهم أيضا ليعاونوه لأنهم ذوو دين توحيدى وهو فى قبيلة وثنية ، يدل على ذلك أن دعوته العربية الخالصة أخذت تمتزج تدريجيا بذكر الأنبياء المذكورين فى العهد القديم ثم أخيرًا ذكر عيسى ورسله . وهذا ينتهى بنا إلى نقطة هامة . فماذا عسى أن يثير انتباه المكيين إلى

---

(١) اعتذر عن هذه التسمية . وقال إن المسلمين لا يقبلونها لأن محمدا ليس إلها . وهو لا يعنى ذلك أيضا . ولكن التسمية أصبحت دارجة ومألوفة . وهى تعنى الديانة المحمدية فقط .

صحف إبراهيم وموسى ، وماذا كانت معلوماتهم عن نوح وسفينته أو عن فرعون وموسى ؟ ، أو عن الملائكة التى تبشر إبراهيم بالولد بعد أن بلغه الكبر وامرأته عاقر ؟ كل هذا مع الإشارات الكثيرة إلى قصص العهد القديم تجعلنا نؤمن بوجود مستمعين يهود ومجتمعًا يعرف هذه القصص .

وقبل أن نستمر مع جيوم فى سرد أدلته نذكر أن إبراهيم عليه السلام ـ كان معروفا لدى العرب ، وأن بعض قصص العهد القديم جاءت فى شعر أمية بن أبى الصلت وأن الحنفاء كانوا يتعبدون على ملة إبراهيم .

ويذكر جيوم بعد ذلك أن دعوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظلت تنمو بما تقتبس من العهد القديم حتى نزلت سورة يوسف فدلت على أنه لا يقف عند سفر التكوين .

وأثناء إقامته فى المدينة واجه معارضة من اليهود هددت مكانته ، وقد استهانوا به وأبوا أن يجيبوا أسئلته . ولكنه خلال هذه المدة تعلم أن إبراهيم كان أسبق من موسى وعيسى ، وأنه كان أبًا لإسماعيل وأنه لذلك جد العرب ، وأنه هو وإسماعيل بنيا الكعبة ، وأن إبراهيم كان مسلما . وبهذا الإعلان بدت الصفات البدائية للإسلام . ولكن لا توجد أدلة تاريخية تدل على أن إبراهيم وإسماعيل كانا بمكة أصلا ، فإذا افترضنا أن هناك رواية من هذا النوع فإن البحث اللغوى يعارضها لأن اسم إسماعيل فى صورته العربية الحقيقية كان مبدوءًا بالياء وليس بالمهمزة فنحن إذن بحاجة إلى شرح يبين كيف فقدت الذاكرة السامية هذا الأصل من كل الذين عرفوا الاسم الأصلى ، وإذن فالصورة التى فى القرآن قد تكون مأخوذة من مصدر يونانى أو سريانى . وأسماء إسرائيل وإسحق ويونس وإلياس (اللذين أصلهما جوناه وأليجاه) أمثلة أخرى لهذا النقل ، وإذا كانت هذه الأسماء مألوفة لسامعيها من محمد ، فليس ذلك راجعا إلى أنهم سمعوها فى لغة إغريقية أو آرامية ، وإذن فاتهامهم إياه إذ يتلو عليهم القرآن بأنه أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وعشيًا تهمة لها ما يبررها من الناحية اللغوية ، هذا عدا الأساطير التلمودية كقصة الشيطان وإبائه أن يسجد لآدم .

هذا هو المصدر الأجنبى الذى سمى قرآنًا عربيًا ، والقارئ العادى لا يتنبه لهذه الفوارق اللغوية . ونجد فى القرآن كلمات كثيرة لا تفسر فى اللغة العربية إلا بالرجوع إلى أصولها فى اللغات الأخرى ، وهذه نقطة ذات أهمية لأن القرآن أعلن أنه بلسان عربى مبين والكلمات الكثيرة غير المفهومة للمفسر الآن كانت مفهومة لمستمعيه ، لأن الكثيرين منهم كانوا على صلة باليهود والنصارى أثناء رحلاتهم فى الجهات العديدة واستفادوا منهم ما وسعوا به لغتهم .

هذه الإطالة المسرفة للاستدلال على أن محمدًا تعلم من الكتابيين لا تأتى بشىء وجيوم باحث استشراقى ـ يعلم ولا ريب أن العرب كانوا يعرفون إبراهيم وإسماعيل ، وعندما فتح المسلمون مكة كان على جدار الكعبة صورة لإبراهيم وبيده الأزلام . وحيث قرر هو أن اللغة العربية تغذت بكلمات أجنبية وأن القرآن استعملها أو استعمل شيئا منها ففهم ما استعمله ولم ينكر منه شىء ، فهو قرآن عربى بدون أية شبهة ، ودخول كلمات أجنبية فى اللغة العربية لا ينافى أنها عربية ، واللغة الإنجليزية مليئة بالكلمات الإغريقية واللاتينية ولا تزال تأخذ من اللغات الأخرى ، واللغة العربية ذات مرونة وقابلية للنمو . وقد هضمت كلمات أجنبية كثيرة وصبغتها بصبغتها العربية فأصبحت كلمات عربية وزنًا ومعنى ، فهذا لا يعارض أن القرآن عربى مبين معجز . وأسماء الأعلام عادة تختلف فى اللغات فتكسوها كل لغة صبغتها والشىء العجيب فيما مر أن قصص هؤلاء الأنبياء التى يزعم أن محمدًا استقاها من يهود المدينة ـ جاءت فى السور المكية ، وسورة مريم التى ذكرت حمل المسيح وميلاده مكية . وقد ذكرها مهاجرو المسلمين إلى الحبشة أمام النجاشى ، وأعيدت فى سورة آل عمران . وإذن .. فافتراضه كله واهٍ لا يجد أساسًا يقوم عليه .

وقد ترك جيوم أثرًا فى المستشرقين الآخرين فحاكوه فى كثير مما اتهم به محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو قد استبعد أن يكون محمد ظل أميًا بل لابد أن يكون قد تعلم القراءة والكتابة لأنه تاجر لابد أن يدون حساباته ، وبهذه القراءة استطاع أن يقرأ الكتب اليهودية والمسيحية ..

وهذا استنتاج آخر يعارضه الواقع ، وقد قرأ جيوم ـ ولا ريب ـ معاهدة الحديبية التى أصر فيها سهيل بن عمرو على محو كلمة رسول الله ، وقال على بن أبى طالب كاتب المعاهدة : إنى يعز علىَّ يا رسول الله أن أمحو اسمك ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضع أصبعى عليها وأنا أمحوها ، فهو حتى قبل موته بأربعة أعوام لا يعرف أين اسمه أو صفته ، فمتى إذن تعلم القراءة حتى قرأ كتب الآخرين ؟ وقد جرى المستشرق الاسكوتلاندى ـ مونتوجومرى وات ـ فى الميدان الذى جرى فيه جيوم ، فهو يقول : [1] إن إمكانية قراءة محمد الكتاب المقدس قد تلقى معارضة ، لأن المسلمين يصرون على أنه كان أميًا . ولكن الباحثين المحدثين من رجال الغرب يشكون فى ذلك ، ويرون أن هذا الادعاء إنما يراد به إبراز معجزة النبى ، لأن هذا القرآن لا يمكن صدوره عن أميين غيره ، فهو معجزة له . ولكن على العكس من ذلك كان يوجد بمكة كثيرون ممن يقرءون ويكتبون ، وهذا يسوغ افتراض أن تاجرًا ذا تأثير ومكانة ـ مثل محمد لا يمكن أن يفوته هذا

(1) Mohamed is a Prophet and Statesman

الفن ، وحيث ان الصورة القرآنية تنبئ أن محمدًا لم يكن قرأ الكتاب المقدس وأيضًا لم يقرأ الكتب الأخرى ، فهذه المعلومات إذن جاءته سماعا . وهنا يبرز عدد من الإمكانات. فقد يكون قابل بعض الكتابيين وتكلم معهم عن المسائل الدينية ، وكان المسيحيون على تخوم الجزيرة كما كان الأحباش باليمن ولعل بعضًا من هؤلاء أن يكون قد جاء مكة للتجارة ، وربما كان بعض القبائل أو العشائر الرحل الذين وصلوا مكة كانوا مسيحيين أو يهودًا . وكان يوجد يهود فى المدينة ، وفى جهات أخرى . وبهذا تبدو الفرص متوفرة لمقابلة محمد للكتابيين وأخذه منهم مسائل الدين . وفضلا عن ذلك هو كان يعرف ورقة بن نوفل ابن عم خديجة .

ومن الممكن أيضا أن يكون بعد إعلانه نبوته ، وأنه يدعو بدعوة الأنبياء السابقين دعوة موسى وعيسى ، أراد أن يغتنم الفرصة من مقابلة هؤلاء ليزيد معلوماته عن الديانتين اللتين جاء مصدقا لهما . وانتهى « وات » أخيرًا إلى أن الإسلام نبع من الكتاب المقدس بطريقة ما غير قراءته .

هكذا نجد مستشرقا كبيرًا يبنى فكرته على عدد من الاحتمالات لا يجد دليلا على وجود أى منها ، وهو فى كتابه .. محمد فى مكة .. يقول : إن مكة كانت تعج بالمحاضرات وكانت أسواقها لا تقتصر على الأعمال التجارية ، إذ كانت بلدًا متحضرًا ـ ولعله لذلك نفى أن يكون الإسلام صورة صحراوية .

وفى هذا الكتاب الأخير يقول إن محمدًا كان يقرأ التوراة فتزداد معلوماته تدريجيًا ولهذا عندما ذكر لوطا وقومه ظن أن المرأة التى خالفته كانت أجنبية عنه فقال عنها : « إلا عجوزًا فى الغابرين » ـ ثم عرف أنها امرأته فقال « إلا امرأته كانت من الغابرين » .

ولو رجع إلى ترتيب نزول السور فى أصح ما جاء فى نزولها لوجد أن السور التى ذكرت أنها امرأته ، وهى سور الأعراف والحجر والنمل والعنكبوت نزلت قبل سورتى الشعراء والصافات . فاستنتاجه أيضا غير صحيح . والاستنتاج العلمى على أى حال لا يبنى على مجرد الافتراض والاحتمال .

هذان مستشرقان كبيران ، وفى المقدمة التى كتبها . ج . مارجوليوس ـ للترجمة القرآنية التى أخرجها رودول J.M. Rodwell ذكر لهذه الفكرة ، وكذلك فعل مكسيم رودنسون فى كتابه « محمد » .

وليس القرآن مجرد أقاصيص توراوية أو إنجيلية أو تلمودية .. ففيه قصص عاد وثمود

وأصحاب الرس وأصحاب الأيكة وقوم تبع .. ولا شيء منها فى المصادر اليهودية أو المسيحية وجاء ذكر شعيب « يثرون » حمى موسى عرضًا ، أو تكملة لقصة موسى ، ولم يذكر شيء عن رسالته سوى أنه كاهن تعلم منه موسى . وفى القرآن عظات وأمثال وتشريع ووصف لملكوت السموات والأرض ، ومظاهر الطبيعة الدالة على عظمة الله ووجوده .. لا نجد شيئًا منها فى هذه المصادر ، وفضلا عن ذلك هو كتاب معجز يحتم إعجازه أنه تنزيل من حكيم حميد .

أثر الوحى المحمدى :

أخرج الوحى المحمدى قرآنا وغير قرآن ـ أتباعه من الظلمات إلى النور حقًا ، فقد مر على الأمة العربية حين من الدهر لم تكن شيئًا مذكورًا ، ولو تأخر نزول القرآن قرنًا أو قروناً لظلت الأمة العربية منسية أيضًا ، ولقد كان بين العرب يهود ومسيحيون فما أحدثوا بالجزيرة حضارة ولا غيروا من موروثها شيئا .

كان فى اليمن مسيحيون استقر لهم سلطان بها بعد أن قضى أبرهة على ذى نواس الحميرى . ومنذ سنة ٥٠٠ م كانت مدينة نجران مركزًا مسيحيًا ، وبذلت جهدًا حربيًا كبيرًا لبث المسيحية فى الجزيرة العربية فلم تفلح ، وكان على حواف الجزيرة مسيحيون هم المناذرة والغساسنة ، ولم تدخل المسيحية على يد أى من أولئك جوف الجزيرة . ولم تستطع أى من هذه الجماعات أن تؤسس لدولتها حضارة . كان دعاة المسيحية فى اليمن يغشون الأسواق ويدعون الناس إلى الإيمان بالمسيح ابنًا لله ، ويدعونهم إلى تمجيد البكورة والرهبنة . فلا نالت دعوتهم نجاحًا ولا كان وراءها مدنية ، وأى مدنية فى العزوبة اقتداء بالمسيح أو فى اعتزال الناس فى الأديرة ؟ !

وكان اليهود فى جنوب الجزيرة أيضًا ، ودخل ديانتهم بعض الحميريين . وبعد أن تهدم سد مأرب تفرق اليمنيون فى أنحاء الجزيرة وسبق اليهود إلى الواحات الخصبة بجانب المدينة وخيبر وفدك ، ونزل الأوس والخزرج إلى جوار من بالمدينة . وكان قصارى ما فعل اليهود أن امتصوا خيرات البلاد ، وأوقعوا بين القبيلتين الأختين ليقرضوا كلا منهما بالربا ويمتصوا ثمرات ما يكسبون ، وكانوا يشعلون جذوة الحرب بينهم كلما خبا سعيرها ، .. ولولا أن جاء الإسلام لفنيت القبيلتان .

ليس للوحى اليهودى أثر حضارى ، ولكن له آثار تخريبية فى كل مكان ، وقد اشتهر اليهود بالتفوق التجارى والعلمى . وكان ذلك كله بدافع العصبية العرقية التى يدينون بها ، وبإيمانهم بأنهم شعب مختار مميز على جميع الشعوب ، فهم يعملون على تحقيق هذا التفوق ولا يمدون

جيرانهم بحضارة ، بل يعملون على إضعافهم واستذلالهم .

وامتاز الوحى المحمدى بأنه دين ودنيا ، وعلم وعمل وبأن الناس أمامه سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالعمل الصالح . إن أكرم الناس عند الله أتقاهم ، وخير الناس أنفعهم للناس .. فلم تكن دعوة اعتزالية عديمة الأثر كالمسيحية ، ولا مستغلة خاصة بطائفة كاليهودية ، ويقول نبى الإسلام لقومه القرشيين لا يأتينى الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوننى بأحسابكم ، ويقول لابنته : « اعملى يا فاطمة فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا » ..

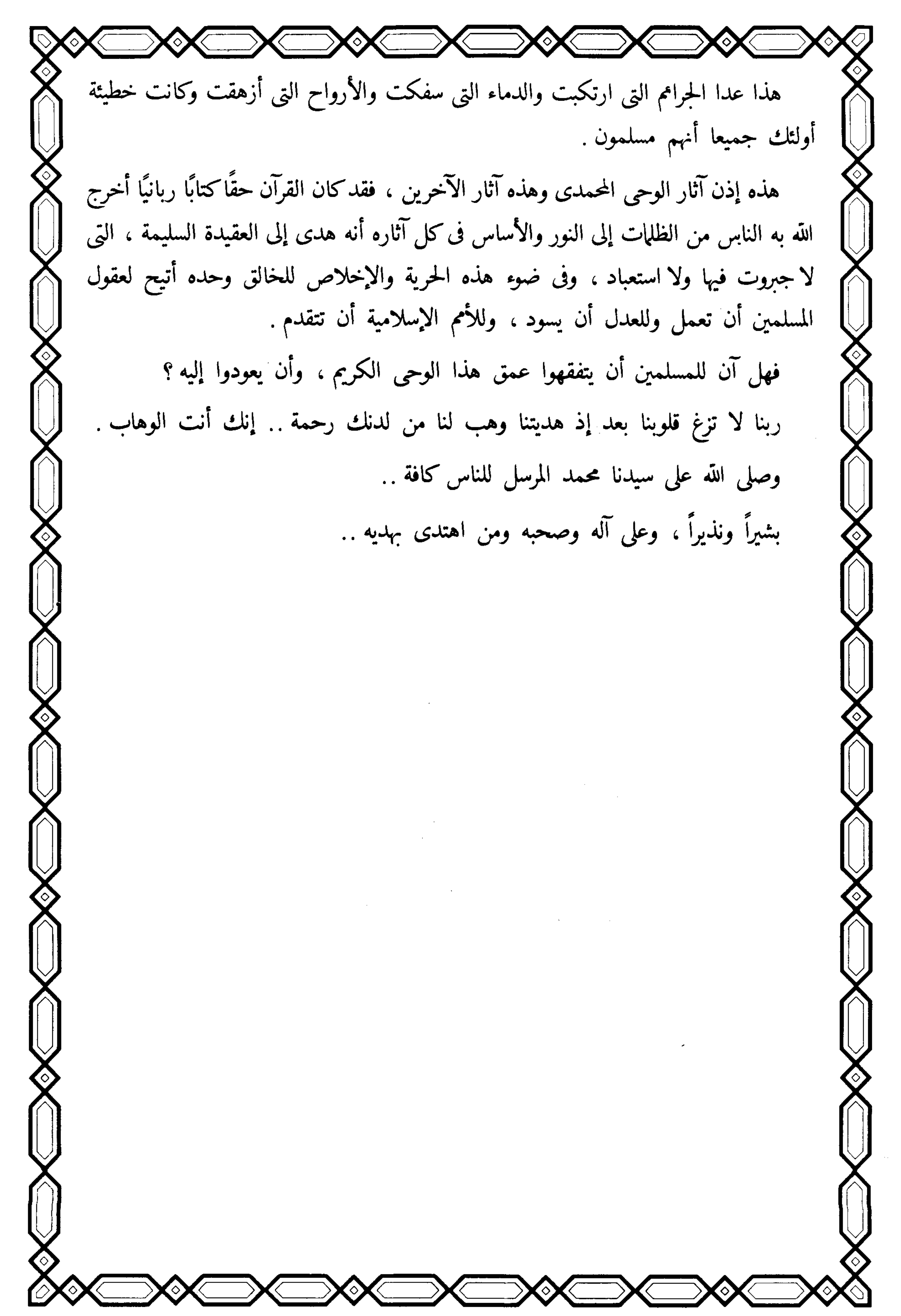
إنها دعوة تقوم على المنطق ، تعلن أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . وهذا كله لا يناسب اليهودية التى تقوم على التمييز الذى لا عدل فيه ، والمنكر الذى تنفر منه النفوس والبغى على الآخرين . فأى حضارة ترجى من هذه الديانة .

ومن الجانب العملى أقام المسلمون فى كل البلاد التى نزلوها حضارة ، ورفعوا قيمة العقل وبناء الإنسانية . وإلى هذه العوامل يعزى انتشار الإسلام بكل هذه السرعة ، وإليها يعزى عسر انتزاعه من قلوب أتباعه .

بعد مائة عام من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهى بداية انطلاق الإسلام ـ كانت الدولة الإسلامية تشمل مساحة تزيد على ما وسعته الامبراطورية الرومانية فى أقصى اتساعها ، والدولة الرومانية لم تصل إلى هذا الاتساع إلا بعد قرون متطاولة وحروب متلاحقة . وترك المسلمون فى أسبانيا معالم حضارة لن تمحوها الأيام . أنشأوا جامعات وبنوا مدارس وشقوا أنهارًا ومدوا طرقا وأقاموا جسورًا ، ومجارى مياه معلقة ، وادخلوا مزروعات لم تكن موجودة وبجانب ذلك غصت عواصمهم بالمكتبات والكتب ، وكان قصارى ما فعلته المسيحية عقب طرد المسلمين أن قدمت كل هذا التراث الفكرى طعمة للنار ، فقضت على الحضارة التى أقامها المسلمون ، وهذا ما جعل إدورد جيبون ـ المؤرخ الانجليزى يقول :

إن الحضارة تأخرت فى أوربا ثمانية قرون بخروج المسلمين من أسبانيا .

نعم إنها ثمانية قرون أقامها المسلمون فى تلك البلاد ، أنشأوا خلالها هذه الحضارة ـ تجارة وصناعة وزراعة وتربية وعلوم وطب وفلك وفلسفة .. الخ .. الخ . وكل ذلك بدافع تعاليم الإسلام ـ وكل ذلك قضى عليه القسس المسيحيون فى أيام .



هذا عدا الجرائم التى ارتكبت والدماء التى سفكت والأرواح التى أزهقت وكانت خطيئة أولئك جميعا أنهم مسلمون .

هذه إذن آثار الوحى المحمدى وهذه آثار الآخرين ، فقد كان القرآن حقًا كتابًا ربانيًا أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور والأساس فى كل آثاره أنه هدى إلى العقيدة السليمة ، التى لا جبروت فيها ولا استعباد ، وفى ضوء هذه الحرية والإخلاص للخالق وحده أتيح لعقول المسلمين أن تعمل وللعدل أن يسود ، وللأمم الإسلامية أن تتقدم .

فهل آن للمسلمين أن يتفقهوا عمق هذا الوحى الكريم ، وأن يعودوا إليه ؟

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة .. إنك أنت الوهاب .

وصلى الله على سيدنا محمد المرسل للناس كافة ..

بشيراً ونذيراً ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه ..